مجتمع الحجاز في العصر الأموي بين الآثار الأدبية والمصادر التاريخية

"رسالة دكتوراه"*

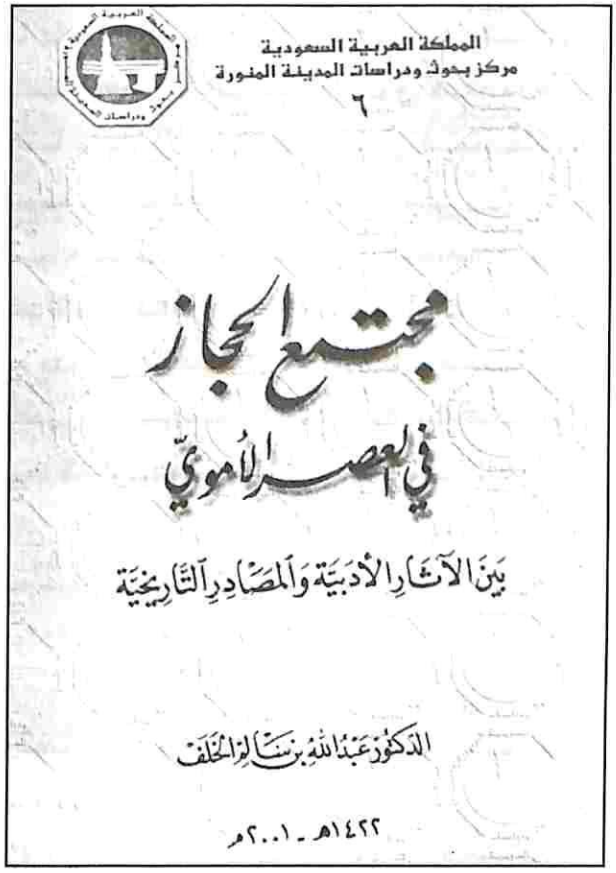

المؤلف: د.عبد الله بن سالم الخلف.
الناشر : مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة.
سنة الطبع : ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

عرض: التحرير

هذا الكتاب مناقشة منهجية هادفة لقضية صنعتها بعض الكتابات القديمة وضخمتها دراسات أدبية حديثة: هي التغيرات التي أصابت الحياة الاجتماعية في المدينة ومكة بخاصة، والحجاز بعامة في العهد الأموي.

ونظرت هذه الدراسة بشمولية واسعة في مصادر تراثية متنوعة: الأدب والتاريخ والتراجم وكتب الرجال وكتب الحديث، وتتبعت إسناد الروايات ومصداقية رواتها بمنهج المحدثين العلمي ونظرت في كتب التاريخ ومحصت الأخبار والوقائع.

وكشفت الدراسة أن هناك قلباً للحقائق، وإطلاقاً جزافياً للأحكام، وإيهاماً للقراء بأن تلك الأحكام صدرت عن بحث ودراسة دقيقة، مثل قول شوقي ضيف: "إن شعراء الحجاز هجروا أو كادوا يهجرون الأوزان الطويلة، وآثروا الأوزان الخفيفة والمجزوءة، ليكون شعرهم أكثر ملاءمة للغناء"، ويقول طه حسين وشوقي ضيف وغيرهما:

«إن شعر الأحوص والعرجي أشد فحشاً من شعر عمر بن أبي ربيعة»، مع أنهم لو كلفوا أنفسهم قراءة سريعة مقارنة لدواوين الثلاثة لعلموا أنهم ارتكبوا خطأ واضحاً، وهكذا في الكثير من الأحكام التي كشف البحث عما فيها من أخطاء ومبالغات.

ولما كان هؤلاء قد اعتمدوا اعتماداً كبيراً على الأخبار التي نقلها الرواة، والتي تضمنها كتاب الأغاني وغيره من كتب الأدب والأخبار، ولما كانت الأخبار أحد المصدرين الرئيسين في دراسة مجتمع الحجاز، فقد رأى الباحث أنه لا بد من القيام بدراسة عنها، وعن أحوال الرواة الذين أسهموا في روايتها.

وتبين من الدراسة أن العلماء والدارسين يكادون يجمعون على وجود التزيد والكذب بكثرة في الأخبار في

* نوقشت في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، بإشراف د. محمد محمد حسين، ود. عبدالقدوس أبو صالح.

كتب الأدب مثل كتاب الأغاني، وأنه لا يمكن الاعتماد عليها دون دراسة وتحقيق وتمحيص، وأن طائفة من الرواة الذين طعن فيهم العلماء واتهموهم بالكذب ونحوه هم من بين الذين نقلت إلينا عن طريقهم كثير من أخبار الحجاز.

وفي الفصل الثاني تبين أن القول بأن أهل الحجاز قد عزلوا في بلدهم ومنعوا من المشاركة في الحياة السياسية، يتعارض مع الحقائق التاريخية التي تثبت أنهم شاركوا مشاركة فعالة وكبيرة في الحياة السياسية، سواء في تولي الولايات، أو قيادة الجيوش الفاتحة، أو الانخراط في سلكها، حيث كان يخرج منه آلاف المقاتلين في كل عام للمشاركة في الجهاد في سبيل الله، أما القول بأنهم قد غرقوا في الترف والنعيم، وأن الأمويين أغدقوا الأموال عليهم ليصرفوهم عن التفكير في الخلافة، فهو قول غير صحيح على إطلاقه لأنهم لم يكونوا يغدقون الأموال إلا على نفر قليل ممن كانوا من أبعد الناس عن الترف واللهو والمجون،وإضافة إلى المشاركة في الحياة السياسية فقد كان الحجاز من أكبر المراكز العلمية، وكان لعلمائه جهود كبيرة في نشر العلوم الشرعية، كالتفسير والحديث والفقه والسيرة.

أما الفصل الثالث فإنه يتحدث عن الشعر الحجازي، ويناقش الرأي القائل بأن علماء الحجاز ونساكه فتنوا بالشعر والغزل، ويبين أن الأدلة التي استدل بها القائلون بهذا غير ثابتة وأنها على فرض صحتها لا تدل على اتجاه عام لدى العلماء إذا تأملنا في مضمونها، وقارنّاها بالأدلة الأخرى التي تدل على خلاف هذا القول، والتي هي أقرب إلى القبول وأقوى إسناداً منها، كما أن ما وصف به عروة بن أذينة وأبو السائب المخزومي وعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي من الفقه والنسك أمر قد بولغ فيه مبالغة كبيرة، ولا يمكن الاحتجاج بأمثال هؤلاء على موقف فقهاء الحجاز ونساكه من الغزل، مع أن ما نسب إلى الجشمي من ذلك لا يستند إلا إلى خبر واحد، يتضمن من دواعي الشك أكثر مما يتضمن من دواعي القبول، ويتضمن هذا الفصل إحصاء لما في دواوين شعراء الحجاز المشهورين من أغراض شعرية، اتضح من خلاله أن الغزل هو الغالب على معظمهم، وقد ناقش الباحث الرأي القائل بأن انصراف شعراء الحجاز إلى الغزل كان أثراً من آثار شعورهم باليأس بعد إخفاقهم في الاحتفاظ بمكانتهم السياسية، وفشل ثوراتهم، وبيّن أن هذا الرأي مخالف للحقائق التاريخية، لأن معظم شعراء الغزل الكبار عاشوا فترات طويلة من أعمارهم، وتجاوز بعضهم الخمسين أو قاربها قبل أن تفشل ثورات الحجازيين، وينتقل الحكم نهائياً إلى بني أمية، مما يؤكد أن ظاهرة الاتجاه إلى الغزل سابقة لإخفاق تلك الثورات.

وتحدث الباحث في هذا الفصل أيضاً عن اتجاهات الغزل الحجازي، وناقش الرأي القائل بأنه ينقسم إلى نوعين متباينين هما الغزل الإباحي الذي يتسم بالفحش والتحلل من القيود، والغزل العذري الذي يتسم بالقدسية والطهارة، وذكر أن وصف غزل عمر بن أبي ربيعة بالإباحية والفحش أمر مبالغ فيه، يؤكد هذا تناقض أقوال الذين وصفوه بذلك، وعدم ثباتهم عليها، ثم بيّن أن القول بأن غزل العرجي أكثر فحشاً وإباحية من شعر عمر قول بعيد عن الحق، وأبعد منه أن يقال مثل ذلك في غزل الأحوص، الذي كان أقرب إلى شعر العذريين منه إلى شعر عمر، كما أن وصف غزل العذريين بالقدسية والنقاء والطهارة لا يخلو من المبالغة أيضاً.

ثم تحدث الباحث عن العوامل التي أدت إلى وجود الحب العذري في البادية دون الحاضرة، وذكر أن منها ما يعود إلى طبيعة الحياة الاجتماعية في البادية، ومنها ما يعود إلى التكوين النفسي لأهلها، ومنها ما يعود إلى حالة الاستقرار النسبي وقلة الحروب والصراعات القبلية، وبيّن أن وجود الحب والغزل العذريين في البادية دون الحاضرة لا يعني أن البادية أكثر تديناً، وأن المرأة فيها كانت أكثر تحفظاً.

أما الفصل الرابع الذي يتحدث عن المرأة الحجازية، فقد بين الباحث فيه أنه حدث شيء من التغيير في حالة المرأة عما كانت عليه في صدر الإسلام، ولكنه كان تغيراً يسيراً وبطيئاً، حيث كانت المرأة الحجازية خلال العصر الأموي حريصة على التستر بعيدة عن الاختلاط، وهو ما دل عليه الكثير من الأخبار والنصوص الشعرية التي يصور كثير منها شدة الغيرة على العرض، وما كان ينطوي عليه لقاء الرجل بالمرأة من مصاعب ومخاطر.

أما القصص الغزلي فإنه بشهادة الكثير من الدارسين كان قصصاً خيالياً، كما أن الأسماء النسائية التي تغزل بها الشعراء كانت معظمها خيالية. والذين

ظنوا أنها أسماء نساء واقعيات، اعتماداً على أقاصيص الرواة، لم تخل أقوالهم من التهافت والتناقض.

ولا يقل عن ذلك تهافتاً ما ورد في دراسات المعاصرين من أقوال عن انتشار السفور والاختلاط، وما ذكروه من أن المرأة الحجازية نالت حرية واسعة في الظهور أمام الرجال والتصدي للشعراء، وأنها كانت تفعل ذلك ليتغزلوا بها ويتغنوا بجمالها، وأن الرجال كانوا لا يجدون حرجاً في غزل الشعراء بنسائهم.

وفي الفصل الخامس تبين أن القول بأن علماء الحجاز كانوا يبيحون الغناء المتقن المصحوب بالآلات الموسيقية المختلفة غير ثابت وأن أكثر العلماء نقل عنه القول بتحريمه. كما اتضح أن أسانيد أغلب أخبار الغناء والمغنين الحجازيين في العصر الأموي غير صحيحة،وأن معظم رواتها من المغنين أو المجهولين أو المتهمين. أما دراسة مضمون تلك الأخبار فقد كشفت عن دلائل الاختلاق والتلفيق وعلاماتهما. ومما يؤكد ذلك أن آثار الغناء في الشعر الحجازي آثار باهتة جداً، وأن دواوين معظم الشعراء تخلو أو تكاد تخلو من ذكر الغناء سوى ما ورد لبعضهم من أشعار قليلة جداً تبدو على معظمها آثار الصناعة والتوليد، وهذا لا يتناسب مطلقاً مع ما روي لنا من أخبار تحدثت عن العلاقات القوية بين المغنين والشعراء، ولا سيما أن هذا الموضوع من ألصق الموضوعات بالشعراء وأقربها إليهم، وليس موضوعا جديداً بل سبق أن طرقه عدد من الشعراء الجاهليين.

ثم تحدث الباحث عن الخمر في الشعر الحجازي فبين أن معظم دواوين الحجازيين تخلو من الحديث عنه، وأن هذا الأمر ربما كان جزءاً من تأثير المجتمع، ثم عرض أقوال بعض المعاصرين عن انتشار شرب الخمر في الحجاز، وناقش حججهم وأدلتهم، وبيّن أنها حجج واهية وأدلة متهافتة.

أخيراً نأمل أن تكون هذه النتائج قد دفعت كثيراً من الأحكام الخاطئة والجائرة التي شوهت صورة المجتمع الحجازي في العصر الأموي، وبذلك تلتقي نتائج هذا البحث مع قول الرسول ﷺ الثابت في الصحيحين: "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم". ومع غيره من النصوص النقلية التي تدل على فضل ذلك المجتمع، وتوحي بأنه كان على درجة عالية من التمسك بأحكام الإسلام وآدابه. ■

الليلة الأخيرة

شعر: علي فريد
مصر

لستِ لي في هذه الليلة إلفا
نبع إحساسي بإغرائك جَفّا
صُمَّ سمعي عن نداءات الهوى
بصري عن هذه الفتنة كُفّا
لم أعد أعشق عينيكِ التي
كان لي محرابها بالأمس مرفا
زمن اللهو تولى فاهدئي
واستمعي الدهر الذي يعصف عصفا
ذلك الحب الذي أسكرني
حل ضيفاً ومضى عني ضيفا
إن همّي هاهنا يثقلني
إن بؤسي هاهنا يزداد عنفا
يخلف الدهرُ مواعيد اللقا
فإذا ما أوعد الفرقة وفّى
فاستريحي الآن من عبء الهوى
أسدلي فوق غرام الأمسِ سِجْفا
لا تقولي "شاعر منفردٌ"
أنا لولا وحدتي ما صغت حرفا
لا تلومي الشعر في إيلامنا
إنما الدنيا بغير الشعر منفى
لم تعد غير رؤى الشعر التي
تزرع الآمال إشفاقاً وعَطْفا
فاهجريني أو هبيني "يوسفاً"
همَّ أن يفعلَ شيئاً ثم عفّا